الفصل الأول :

ماهية الثقافة

obeikandl.com

obeikandl.com

الثقافة هى الخبز الفكرى للفرد ، وبأهمية الخبز اليومى نفسها. والإنسان يعيش ويحيا بمقوماته الروحية والفكرية قبل المادية . وإذا ما كان الخبز هزيلاً من كلا النوعين تداعت إنسانية الفرد ودب الوهن فى المجموع .

والثقافة ليست ترفاً ولا ميزة لفئة ، وبقدر ما يرتفع مستواها بقدر ما يرتقى المجتمع ويزدهر "نوع" الحياة .

واللغة هى أساس الثقافة ، وهى التى جعلت التفكير التصورى ممكناً وعميقاً . لأن الكلمات هى فى حقيقتها أفكار ، وكل كلمة تعبر عن فكرة. ونحن حين نرث الكلمات من المجتمع نرث مئات الأفكار التى أوجدت لنا ثقافة بدائية ساذجة أولاً ثم متحضرة مركبة ثانياً ولو أن القردة مثلاً عرفت اللغة لما تأخر نمو أدمغتها ولكانت قادرة على إيجاد حضارة وثقافة لها .

وقد أحس الإغريق هذه الحقيقة – حقيقة أن الكلمة فكرة، والعكس فاشتقوا لفظة المنطق (لوجيك) من الكلمة"لوجوس".

واللغة اختراع جماعى ، وبالتالى فإن كل ثقافة تقتضى وجود جماعة، ولكن العكس ليس صحيحاً – وهى تتعلق باستعداد الإنسان للتفكير المجرد وللقدرة على الكلام ..لذا فإنها – أى الثقافة – خصيصة إنسانية .

obeikandl.com

ويكمن الوجه الإنسانى فى الثقافة فى التعبير عن القيم والمُثل ، وفى الجهد الذى يبذله الإنسان ليفهم محيطه ونفسه ، ولكى يعين الطريق الذى سيتبعه بين قوى الطبيعة ولكى يسيطر مع أمثاله عليها وعلى أعماله وتعبيره .

ولأن الإنسان هو الوحيد دون سائر المخلوقات الذى يمتاز بالتفكير والقدرة على الفهم والاتحاد فى السلوك ،فقد ترتب عليه بذلك المسئولية عن سلوكه. وبما أن هذه المسئولية عظيمة فإن مصيره متوقف عليها وعلى تقديرها .

وتقدير المسئولية إنما يكتسب بالتربية والتعليم اللذين هما عماد الثقافة وحظ الإنسان من الثقافة هو حظه من المدينة ، لأنها -أى الثقافة – من أهم عناصر المدنية إن لم تكن روحها . فالأمة المتمدينة هى الأمة التى تملك أكبر حظ ممكن من الثقافة . ولا غرابة إذن القول بأن قضية الثقافة هى قضية المدنية لأن رسالتها الأولى هى تحرير الفكر البشرى من العوامل التى تؤخره ، وتحطيم جميع العراقيل التى تقف فى طريق تقدمه ، وتمكينه من فهم المشاكل التى تعرض له وتوجيهه نحو السلوك القويم .

ولأن كانت الثقافة من عناصر الوحدة الفكرية للأمة ،فإن الاستقلال الثقافى أمر نسبى بين الأمم – ذلك لأن المدنيات الإنسانية المختلفة قد تحاكت وتمازجت خلال العصور ، فنشأ عن ذلك أثر مشترك من الثقافة بين الأمم .

ونشر الثقافة من العوامل الفعالة فى إصلاح أى فساد فى الخلق ، أو ضعف فى الشخصية ، أو عجز عن تحمل المسئولية ، لأن الثقافة – كما سبقت الإشارة – لم

تعد ترفاً عقلياً بقدر ما هى وسيلة حياة نستطيع أن ندرك قيمتها لو تصورنا انتشار وباء فى الورق يأتى على كل ما جمعت الإنسانية فى خزائنها من كتب .

وإذا كانت المعرفة هى وسيلة السيطرة على الطبيعة والحياة وتسخيرها لخير الإنسان فإن – تدريب الذكاء هو خير وسيلة لتذليل الحياة بين يدى الإنسان

وأهم جهاز من أجهزة الثقافة وأعمقها أثراً هو الكتاب .وإن كان دوره قد تقلص فى الآونة الأخيرة أمام التلفاز والسينما والمسرح، إلا أن الظواهر تشهد بأنه سوف يسترد مكانته فى عالم تنبه أخيراً إلى خطر الأمية .

لكن...

ما هى الثقافة ؟؟؟؟؟

عندما نطرح هذا السؤال يفجؤنا تباين الإجابات وتعددها حتى إنه يمكن إحصاء مئات التعريفات لهذا المصطلح ،وهى تعريفات متنوعة ومتناقضة ووافرة العطاء لكنها أيضاً كثيرة الغموض والتلون ،ففى العلوم الإنسانية عامة لا تكاد توجد أحكام مطلقة تتوافر لها الصحة الكاملة، وأغلب ما يمكن الوصول إليه هو الاجتهادات العامة التى قد تخطىء أو تصيب ، وإن كان بعضها يحظى باتفاق عام

فالتعاريف التى اقترحت لتعريف الثقافة فى المائة سنة الأخيرة على الأقل بلغت حداً من التنوع يصعب معه الاتفاق على تعريف ،وفى هذا الصدد يقول الأستاذ محمود محمد شاكر :

"والثقافة فاعلم تكاد تكون سراً من الأسرار الملثمة فى كل أمة من الأمم وفى كل جيل من البشر. وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغور معارف كثيرة لا تحصى

obeikandi.com

متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يحاط بها ،مطلوبة فى كل مجتمع إنسانى للإيمان بها عن طريق العقل والقلب ،ثم العمل حتى تذوب فى بنيان الإنسان فتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به"

وإذا كان كروبر *Kroeber*، وكلوكهون *Kluckhohn* عالما الأنثروبولوجيا الأمريكيان قد صنفا – قبل ربع قرن –ما لايقل عن مائة وستين تعريفاً للثقافة فإن التفرعات التى تبلورت بعد ذلك تزيد ولا شك فى عدد هذه التعاريف المقترحة

أمام هذا يستغرب أن يكتب إدجار مورين *E Morin* بعد مرور قرن على أول تعريف أنثروبولوجى للثقافة :"الثقافة بدهية خاطئة ،منومة، ملغمة ، خائنة"

وقد اكتسبت كلمة "ثقافة"؛أو *Culture* معناها الفكرى فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ،فالكلمة الفرنسية كانت تعنى فى القرون الوسطى الطقوس الدينية – *Cultes* – ولم تعبر عن فلاحة الأرض إلا فى القرن السابع عشر أما فى القرن الثامن عشر . فقد عبرت عن التكوين الفكرى عموماً وعن التقدم الفكرى للشخص خاصة ..وهذا هو المعنى الموجود فى المعاجم الكلاسيكية .

ولأن الثقافة خاصة بالإنسان العاقل ملازمة له، ولأن هذا الأخير يتطور ويتغير بحسب الحقب الزمانية والمراحل التاريخية ، بحيث لا يمكننا أن نقول أن الإنسان هو فى كل العصور : الحجرى والبرونزى وعصر انبثاق الحضارات المعروفة ،ثم العصور الحديثة لذا فإن الإجابة عن مفهوم الثقافة لابد وأن تختلف باختلاف الأزمنة التى يطرح فيها السؤال . بل إن السؤال نفسه ليس – سؤالاً واحداً كما يبدو بل هو ينحل إلى عدة أسئلة من قبيل :

ما هى الثقافة التى بلغها الإنسان فى هذه المرحلة من مراحل تطوره؟ .

وكيف يرى الإنسان هذه الثقافة؟.

وهل هى مجرد معلومات تقتنى ، وتراكم للمعرفة فقط ، أم هى مواقف متحركة ؟.

وهل هى ضرب من السلوك دون أن تكون سلوكاً ؟.

نحن إذن أمام لفظ كثير التداول لكنه – وفى الوقت نفسه – شديد الغموض بحيث والاحتمال كبير – يكون أى جدل حول الثقافة هو فى الحقيقة جدل بين أشخاص لا يتحدثون جميعا عن شىء واحد .

ومع ذلك ففى استطاعتنا أن نستخلص من المعانى المتعددة لمعنى هذه الكلمة ... معنيين رئيسين :

أولاً: الثقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع ،ويمكن تعريفها بأنها : ذلك الكل المعقد الذى يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية قدرات ، كذلك جميع العادات الأخرى التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً فى المجتمع .

ويقترب من ذلك التعريف الوارد فى قاموس أكسفورد من أنها :

الاتجاهات والقيم السائدة فى مجتمع معين ،كما تعبر عنها الرموز اللغوية والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية .

obeikandl.com

ومن المتفق عليه أن هذا هو أول تعريف أنثروبولوجى للثقافة ، وقد اقترحه الإنجليزى *Tylor* (١٨٣٢ – ١٩١٧م) فى كتابه "الثقافة البدائية " . وقد أوحى هذا التعريف فيما بعد بتعريفات حافظت كلها على مضمونه. منها مثلاً ما استوحاه جاى روشير *Guy Rocher* من أن الثقافة هى : مجموعة مترابطة من أساليب التفكير والإحساس – والعمل المتشكلة إلى حد ما ، تتعلمها ويشترك فيها جماعة من الأشخاص يُكَوِّنون مجموعة خاصة متميزة

ثانياً: الثقافة بمعناها الإنسانى الرفيع ويمكن تعريفها بأنها:صقل الذهن والذوق والسلوك وتنميته وتهذيبه ،أو بأنها : ما ينتجه العقل أو الخيال البشرى لتحقيق هذا الهدف .

ويلاحظ هذا المعنى يرتبط بالأصل اللغوى لكلمة *Culture* فى اللغات الأجنبية وهى كلمة تعنى تعهد النبات وحرثه ورعايته حتى يثمر (منها جاءت كلمة "*Agriculture*" بل أنه يرتبط بهذا المعنى نفسه فى اللغة العربية ؛ لأن الأصل "ثقف" يحمل معنى التهذيب والصقل والإعداد . وهنا تكون الثقافة عملية رعاية وإعداد مستمر للعقل والروح البشرية) .

وفى تعريف آخر للثقافة نجد أنها فى جوهرها لفظ جامع يقصد بها الدلالة على شيئين أحدهما مبنى على الآخر ، وهما طوران متكاملان:

- **الطور الأول :** أصول ثابتة مكتسبة تنغرس فى نفس الإنسان منذ مولده ونشأته الأولى حيث يشارف حد الإدراك البين جماعها كل ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه حتى يصبح قادراً على أن يستقل بنفسه وعقله . وتفاصيل ما يتلقاه الوليد حتى يترعرع أو يراهق تفوت كل حصر بل تعجزه ، لكى تكون له (لغة) يبين بها عن نفسه – (معرفة) تتيح له قسطاً من التفكير يعنيه على من نشأ بينهم من أهله وعشيرته .
- **الطور الثانى:** فروع منبثقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة وهى تنبثق حين يخرج الناشىء من إطار التسخير إلى طلاقة التفكير

وإنما سَمَّيْتُ الطور الأول "إسار التسخير" لأنه طور لا فكاك لأحد من البشر منه منذ نشأته فى مجتمعه فإذا بلغ مبلغ الرجال استوت مداركه وبدأت معارفه ويبدأ العقل عمله المستتب فى الاستقلال بنفسه ، ويستبد بتقليب النظر فى المباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجة التعبير عن الرأى الذى هو نتاج مزاولة العقل لعلمه فعندئذ تتكون النواة الجديدة لما يمكن أن يسمى ثقافة ..وفى الدائرة نفسها ، دائرة تعريف الثقافة ، ما زلنا ندور ونتلمس .

يقول الدكتور سمير نعيم أن الثقافة :هى ببساطة أنماط السلوك السائدة فى المجتمع البشرى – وتشمل كذلك المعتقدات والمبادىء الأخلاقية واللغة والموسيقا

والفن. وغالباً ما تحدث تغييرات فى الثقافة نتيجة تأثير خارجى. أما التطويع الثقافى :فهو عملية تقبل وامتصاص لعناصر ثقافة أخرى ، مثل ما يطرأ على ثقافة أحد المجتمعات المتأخرة نتيجة اتصاله الطويل بمجتمع ثقافته أكثر تطوراً

ويقول الدكتور هادى نعمان الهيتى [٣] أن الثقافة : خصيصة إنسانية ، فهى تميز الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى التى تعتمد فى طرق حياتها على غرائز لذا حافظت هذه الحيوانات على أسلوب حياتها دون تحوير يستحق الذكر منذ آلاف السنين بينما استطاع الإنسان أن يقلب طرق حياته ، لذا عد الإنسان حيواناً ثقافياً .

ويضيف:

إن الشخصية لا تتشكل مع ولادة الطفل ، بل يكتسبها بفعل تفاعله واتصاله ببيئته قبل كل شىء ، ولذا تتخذ شخصية الطفل الصيغة التى تطبعها بها المؤثرات الثقافية .أى أن شخصية الطفل تتحدد له بفضل ما يمتصه من مجمل عناصر الثقافة .. لذا فإن الشخصية هى وليدة الثقافة أولاً والتى يمكن أن تكون عاملاً من عوامل إنضاج ذكاء الأطفال وعملياتهم العقلية ، أو عامل كبت لها يمكن للمجتمع أن يطفئها فتخمد أو يلهبها فتنمو.

ويرد كلارك ويسلر *Wissler* . *C* الأنماط الثقافية إلى تلك الأستعدادات الطبيعية عند الإنسان لتقبل الثقافة : أى أنه يرجعها إلى الغرائز والحوافز الفطرية

١- د . هادى نعمان الهيتى /ثقافة الأطفال/ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت / العدد ١٢٣مارس ١٩٨٨م .

obeikandl.com

التى تدفع الإنسان دفعاً إلى المشاركة فى الثقافة التى تسود المجتمع الذى يعيش فيه وهذا معناه أن الإنسان يؤسس الثقافة دائماً ويشارك فيها لأنه مضطر لذلك بطبعه ولا يملك عن ذلك بديلاً . وهذا فى الواقع هو ما يعطى الثقافة صفة الاستمرار.

والمعروف أن الذى يعطى الثقافة طابعها المميز ومقوماتها الخاصة هو وجود طائفة من السمات الرئيسة العامة التى تسود المجتمع وتفرض نفسها عليه والتى تعرف باسم العموميات *Universals* ، وتتمثل هذه العموميات الثقافية فى: وحدة المشاعر ووحدة التقاليد والعادات والممارسات التى يشترك فيها كل أعضاء المجتمع كالشعائر والمعتقدات الدينية واللغة وما إليها من السمات التى تُعَدُّ أسساً جوهرية فى تكوين المجتمع

وهكذا ، لم يقتصر مفهوم الثقافة على تعدد تعريفاتها وتتابع الدراسات عنها بل ظهرت تخصصات عديدة تعنى بدراستها مثل :

علم الثقافة *Culturology* الذى يرى الثقافة مسألة قائمة بذاتها وأن دراستها تشكل مجالات استقلالية .

وعلم الأنثروبولوجيا الثقافية *Cultural Anthropology* الذى يركز على دراسة الثقافة وعناصرها وسماتها . بالإضافة إلى ظهور كثير من المفاهيم ذات العلاقة بالثقافة .

كالتراكم الثقافى *Cultural Accumulation* .

والصراع الثقافى *Cultural Conflict* .

obeikandi.com

والاتصال الثقافى *Cultural Contact*.

والتكامل الثقافى *Cultural Integration*.

والتغيير الثقافى *Cultural Change* .

وكما تعددت تعريفات "الثقافة" فقد كثرت الاجتهادات أيضاً فى تعريف " المثقف". وربط بعضهم بين المثقف والتعليم ،ورأى البعض الآخر أن المثقف شخص متميز فى مجال المعرفة والأدب ،يتفرغ للعمل الفكرى ، ويعبر عن آرائه ومواقفه بالكتابة. ورأى فريق ثالث توسيع نطاق التعريف بحيث يمكن أن يضم جميع من حصل على أى نوع أو كمية من التعليم الرسمى .

وعلى الجانب الآخر نرى آخرين لم يشترطوا التعليم كصفة ملازمة للمثقف ورأى هؤلاء أن – العبرة بالوعى والحس القومى وإدراك القضايا الرئيسة للمجتمع لأن الثقافة وعى يربط الإنسان بوطنه ، بأمته ، بمجتمعه ، بمستقبل متطور أو بعيد

ومن هذا المنطق فليس كل مثقفٍ مثقفٌ لأنه حصل على شهادة أو لأنه يُحْسِنُ علماً أو حرفة ما [٣] .

وقد تطرق النقاش إلى تقسيم المثقفين حسب خبراتهم وتخصصاتهم ، بل حاول البعض تصنيف المثقفين على ضوء علاقتهم بالسلطة ، فظهرت صفات مثل وعَّاظ السلاطين ، ومثقف الجماهير ، والمثقف الشقى ، والمثقف العميل، والمثقف الشهيد ، والمثقف الأبله ....إلخ .

١- د. مصطفى عمر/ مجلة شؤون عربية / العدد ٥٤ .

obeikandi.com

وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كان الشعر فى العالم القديم يعتبر جانباً من جوانب الثقافة وملحقاتها ، فإن الملاحظ أن الشعر العربى وبخاصة فى الحقب الأولى من الحضارة كان فى الصميم من الحضارة العربية . فنحن إذا نحينا الشعر جانباً لا نكاد بين أيدينا وفى عقولنا شيئاً ذا بال ، ذلك لأن حضارتنا العربية القديمة وضعت فى الشعر أكثر مقوماتها وأعمقها .

وإذا كانت هناك حضارات قامت على أساس من العمارة ، أو التعامل مع الملاحم والمسرحيات أو النحت والتصوير ، فإن الحضارات العربية قد اعتمدت على ما اصطلح على تسميته "بالشعر الغنائى" .

ويحضرنا قول أرسطوطاليس :

(الشعر فطرة فى الإنسان ، فالإنسان مفطور على حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة ، والميل إلى الإيقاع والانسجام ، والتعبير عن هذه الميول يولد فى بادىء الأمر الشعر الارتجالى ، ثم كانت تقسيماته بعد ذلك .

* * *

من مجمل ما تقدم ، فإنه يمكن تلخيص الثقافة بشكل عام فى :

١. أنها خصيصة إنسانية .
٢. أن درجات تقبلها تتفاوت تبعاً للاستعداد الفطرى عند الإنسان
٣. أنها صقل الذهن والذوق والسلوك .

٤. أنهـا جمـاع مـا يكتسـبه الطفـل ويتلقـاه مـن أبويـه وأهلـه وعشـيرته ومعلميه ومؤدبيه

٥. إنها ممارسة التفكير ومعالجة التعبير عن الرأى .

٦. إنها تنتقل من مجتمع أكثر تقدماً وتطوراً إلى مجتمع أقل تقدماً

٧. أن البيئة يمكن أن تكون من عوامل إنضاج ذكاء الطفل ويمكن أن تكون عامل كبت له

وعلى ضوء ذلك ...

وفى حدود ما سنتعرض له ...

فهل يمكن أن نرصد نصيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفى الذى اشتهر فيما بعد باسم أبى الطيب المتنبى من الثقافة بمفهوم عصره للثقافة ؟؟؟؟

وهـل لنـا أن نتعـرف علـى ملامـح الخطـو الأول فـى بيئتـه الضـيقة (المنـزل / الأسـرة) ،ثـم البيئـة الواسـعة (المجتمـع) بملمحـه الاجتمـاعى والسياسـى والفكـرى ، واللـتين شـكلتا وجـدان شـاعرنا وصـقلت موهبتـه الفطريـة وجعلـت منـه أفضل شعراء العربية كما يرى بعض النقاد ؟؟؟؟

obeikandl.com